تحريرُ معنى العَوْدِ المنسوبِ لأنبياءِ اللهِ المرسلين من أقوامهم الكافرين في سورتي الأعراف وإبراهيم

Editing the meaning of the oud Attributed to God's prophets and messengers From their people, the disbelievers in Surat Al-A`raf and Ibrahim

10.35781/1637-000-0108-002

د.عوّاد بن مرزوق بن معوّض السّناني*

*الأستاذ المشارك بقسم الدّراسات الإسلاميّة
كلية الشريعة والقانون – جامعة تبوك

ملخص البحث

هذا البحث يدور حول دفع الإشكال الوارد على الذهن في معنى "العود" الوارد في سورتي الأعراف وإبراهيم؛ فقوله تعالى: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ إما أن يكون المراد بالعودة الصيرورة أو الدخول ابتداءً وهنا لا إشكال أصلًا، وإما أن يكون المراد بالعودة الرجوع وعلى هذا يكون المراد من هذا الخطاب قوم شعيب- عليه السلام-، وأقوام الأنبياء - عليهم السلام-، ودخول شعيب والأنبياء في هذا الخطاب جاء على سبيل التغليب، وإما أن يكون المراد هو التلبيس، أو أن يكون قد صدر هذا القول من قومهم على سبيل التوهم، أو أن يكون المراد هو الرجوع إلى ما كانوا عليه من ترك الإنكار، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾ على غراره من غير فرق في الجواب، وقوله تعالى: ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ يفهم في ضوء ما تقدم، فيكون المراد إما أنه تعالى بَصَرَّهُم بخطأ الشرك، لا بمعنى أنهم كانوا فيه ونجاهم منه، أو يكون المراد نجى قومي، أو أن هذا الجواب من شعيب - عليه السلام - نيابة عن قومه، وبهذا كله يندفع الإشكال ويرتفع الإيهام الذي يتبادر إلى الأذهان عند قراءة هذه الآيات الكريمة، والله تعالى أعلم .

الكلمات المفتاحية:(تحرير- العود- المنسوب- المرسلون- الكافرون)

Abstract

This research revolves around removing the problem that comes to mind regarding the meaning of "al-Oud" mentioned in Surat Al-A'raf and Surat Ibrahim. The Almighty's saying: (Or you will surely return to our religion) either means that what is meant by return is becoming or entering from the beginning, and here there is no problem at all, or what is meant by return is going back, and on this basis what is meant by this address is the people of Shu'ayb - peace be upon him - and the peoples of the prophets - peace be upon them - and the inclusion of Shu'ayb and the prophets in this address came by way of predominance, or what is meant is deception, or this statement was issued

ISSN : 2410-1818

by their people by way of imagination, or what is meant is returning to what they were upon of abandoning denial, and the Almighty's saying: (And it is not for us to return to it) is similar to it without a difference in the answer, and the Almighty's saying: (After Allah has saved us from it) is understood in light of what came before, so what is meant is either that the Almighty made them aware of the error of polytheism, not in the sense that they were in it and He saved them from it, or what is meant is that my people were saved, or that this answer is from Shu'ayb - peace be upon him - on behalf of his people, and with all of this the problem is removed and the illusion that comes to mind when reading these noble verses is removed, and Allah the Almighty Know.

Keywords: (liberation - oud - attributed - messengers - unbelievers)

المقدمة

الحمد لله رب العالمين أنزل كتابه المبين، وجعله مُعْجِزًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له جعل القرآن الكريم أعظم معجزة جاء بها نبي مرسل، وصَيَّرَه نورًا وهدى وشفاءً وموردًا لكل ظمآن، وريًّا لكل عطشان، وأشهد أن نبينا محمدًا عبده ورسوله ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد ...

فإن النظم القرآني البديع لا يُمكن أن يحتمل أدنى خلل، ويستحيل أن ترد عليه أقل ذرة من الشبه، ولا يُتصور أن يعتريه شيء من الإيهام، ولذلك فإن الله تعالى أمر عباده بتدبر هذا الكتاب العزيز فقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [سورة: النساء، آية: 82].

أسباب اختيار الموضوع: وإن من ضروب التدبر التي أمر بها القرآن الكريم الوقوف على الإشكالات أو الشُبَه التي قد تعرض للقارئ فتترك تساؤلاً في ذهنه، والتعرض لها بما سطّره علماء التفسير الأجلاء الذين تناولوا هذه الإشكالات بإيرادها أولاً، ومن ثمّ دفعها والردّ عليها بما وهبهم الله من فهمٍ لكلامه جل وعلا، فإليهم المنتهى في ذلك؛ إذ معرفة الإشكال علم قائم بذاته، ومن المواضع الموهمة ابتداءً، قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ۝ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾ [سورة: الأعراف، 88- 89]، وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [سورة: إبراهيم، آية: 13]؛ فعند قراءة

ISSN : 2410-1818

هذه الآيات قد يرد إلى الأذهان إشكال حاصله: أن العود معناه الرجوع إلى ما كانوا عليه من قبل، وطلب قوم شعيب ﷺ -كما في آيتي الأعراف-، وأقوام الأنبياء -كما في آية إبراهيم- أن يعودوا إلى ما كانوا عليه يقتضي أنهم كانوا على الشرك مع أنه محال منهم عليهم الصلاة والسلام.

أهمية الموضوع:

وهذا هو محور بحثنا في هذه الصفحات حيث نقوم بدراسة هذا الإشكال دراسةً وافيةً يزول معها كل ما لا يصح تصوره في حق أحد من أنبياء الله الكرام عليهم جميعًا أفضل الصلاة والسلام، ومن هنا تظهر أهمية هذا البحث.

منهج البحث:

سأتناول الموضوع من خلال المنهج الوصفي، والمنهج التحليلي وسيغلب عليه المنهج التحليلي؛ لأجل الوصول إلى أقرب معنى مراد من آيات الدراسة وحتى نستطيع أن ندرس الإشكال الوارد في هذه الآيات دراسة وافية سنقوم أولًا بدراسة أهم الجوانب المتعلقة بالآيات والتي من شأنها أن تخدم سياق البحث، وذلك كالمعاني اللغوية، وبعض الأساليب اللغوية، ونحو ذلك، وبعد ذلك نقوم بتحرير الإشكال وإيضاحه، ثم نشفع ذلك بتقريرات المفسرين له، وسنعمد بعد ذلك إلى دفع هذا الإشكال وإزالته.

هيكلة البحث:

يشتمل هذا البحث على مبحثين، وخاتمة.

المبحث الأول: دراسة الآيتين الكريمتين من سورة الأعراف، والآية الكريمة من سورة إبراهيم، وبيان أهم ما يتعلق بهذه الآيات الكريمة من أحكام، وفي هذا المبحث مطلبان:

المطلب الأول: قول الله تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ۝ قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾ [سورة: الأعراف، الآيتان: 88، 89]، وبيان أهم ما يتعلق بها من أحكام.

المطلب الثاني: قول الله تعالى:﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [سورة: إبراهيم، آية: 13] ، وبيان أهم ما يتعلق بها من أحكام.

ISSN : 2410-1818

المبحث الثاني: تحرير معنى العود في الآيات الكريمة، ودفع ما يُتَوَهَم منه، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: البيان اللغوي لمعنى لفظ: "العَوْد".

المطلب الثاني: تقرير الإشكال، وبيانه من خلال ما ذكره المفسرون.

المطلب الثالث: دفع الإيهام وإزالة هذا الإشكال.

الخاتمة: وتشمل على أهم النتائج، والتوصيات.

والله من وراء القصد، نسأله سبحانه التوفيق والسداد

المبحث الأول:

دراسة الآيتين الكريمتين من سورة الأعراف، والآية الكريمة من سورة إبراهيم، وبيان أهم ما يتعلق بهذه الآيات الكريمة من أحكام.

المطلب الأول

آيتا سورة الأعراف وبيان أهم ما يتعلق بهما من أحكام

وقفة على أبرز ما اشتملت عليه الآيتان:

تشتمل الدراسات العامة المتعلقة بآيات وسور القرآن الكريم على جوانب عدة، ودراستها على نحو من التفصيل يكون في كل موضوع بحسبه، ولمَّا كان هذا البحث يدور حول جزئية محددة كان من الملائم أن تتم دراسة الجوانب التي تتعلق بالآيتين على النحو الذي يخدم هذه الجزئية دون غيرها، والتي رأينا أن تكون محصورةً في النقاط الآتية:

أولًا: التعريف بالآيتين الكريمتين:

الآيتان من آيات سورة الأعراف، وقد ذكر المفسرون أن أغلب آيات سورة الأعراف مكية، ومن آياتها ما هو مدني، أما هاتان الآيتان فهما من جملة الآيات المكية [1].

(1) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي (14/ 194)، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية (2/ 372.)

ISSN : 2410-1818

وقد جاء سياق هاتين الآيتين الكريمتين في إطار تكملة المحاورة التي دارت بين نبي الله شعيب عليه السلام وقومه؛ حيث كانت البداية حينما أمرهم أن يعبدوا الله وحده، وأن يوفوا الكيل والميزان، وألاّ يبخسوا الناس أشياءهم وحقوقهم، وألاّ يسعوا في الأرض مفسدين ومخربين، وأخذ يبين لهم ضرورة أن يبتعدوا عن أخلاق وأفعال الكفر والفساد التي يقومون بها من النهي والصدّ عن سبيل الله وعن طريق الخير، وأخذ نبي الله شعيب عليه السلام يبين لهم أن استمرارهم فيما هم فيه من الضلال والطغيان وإرادة الفساد والسعي فيه، والعمل على نشر الكفر والضلال والفساد في الأرض إنما هو شيء يجعل عاقبتهم سيئة كما كانت عاقبة المفسدين ممن سبقوهم، وهنا جاء رد أولئك الكفار بسياق الآية الأولى، ومجمله أنههم خيروا شعيبا ومن آمن معه بين أن يخرجوهم من قريتهم، وبين أن يعتنقوا ملّة الكفر، ثم ردّ عليهم بأن ذلك يعدّ افتراءً على الله وأن الأمر في ذلك مفوض إلى ربه فهو خير الحاكمين[1].

ثانيًا: بيان معاني بعض ألفاظهما وأساليبهما اللغوية:

في هذه الجزئية نبين معاني أهم الكلمات الواردة في هاتين الآيتين الكريمتين:

معنى قوله تعالى: ﴿ٱلْمَلَأُ﴾: الجماعة من الرجال، ومعنى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾: هم الذين تكبروا عن الإيمان بالله، والانتهاء إلى أمره، واتباع رسوله شعيب، وكفروا به، ومعنى قوله تعالى: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ﴾: لنطردنّك أنت ومن تبعك وصدقك وآمن بك، وبما جئت به معك[2].

ومعنى قوله تعالى: ﴿لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾: لترجعن إلى ديننا الذي نحن عليه، وهو الكفر بالله، ومعنى قوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ أي: ولو كنا كارهين هل ستجبروننا عليه أيضًا، أي: على الخروج من الوطن أو العود في ملتكم، أي: إن فعلتم هذا أتيتم عظيما، فإنّا إن رجعنا إلى ملتكم ودخلنا معكم فيما أنتم فيه، فقد أعظمنا الفرية على الله في جعل الشركاء معه أندادًا[3].

ومعنى قوله تعالى: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم﴾ هذا قسم على تقدير حذف اللام، والمعنى: والله لقد افترينا على الله كذبا إن رجعنا وصرنا في ملّتكم الباطلة، ومعنى قوله تعالى: ﴿بَعْدَ

(1) ينظر: مفاتيح الغيب، للرازي، (14/ 316، 317)، والوسيط في تفسير القرآن المجيد، الواحدي، (2/ 388.)

(2) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري.(9/5)، ومعاني الزجاج(353/2)، وإعراب النحاس،(625/1)..

(3) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، (7 / 250) ، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (3/ 448).

ISSN : 2410-1818

﴿إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ﴾ بعد أن خلّصنا الله من هذه الملّة الفاسدة وهدانا بفضله وكرمه إلى طريقه ودينه الذي هو الصّواب الذي يهدم ما أنتم عليه[1].

ومعنى قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ﴾ أي: إلا أن يكون قد سبق في علم الله ومشيئته أن نعود فيها، معنى قوله تعالى: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًا﴾ أي: علم ربنا بكل شيء، بما كان، وبما يكون قبل أن يكون، ومعنى قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ﴾: اعتمدنا عليه فيما توعدتمونا به، وفي حراستنا عن الضلال الذي ترغّبونا فيه[2].

ومعنى قوله تعالى: ﴿ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا﴾ احكم وافصل بيننا وبينهم، وانصرنا بفضلك عليهم، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾ أي: وأنت خير الحاكمين، فإنك العادل الذي لا يجور أبدا[3].

وقد اشتملت هاتان الآيتان على بعض الأساليب البلاغية، منها:

في قوله تعالى: ﴿يَٰشُعَيۡبُ﴾ اعتراض بين المتعاطفين، وفي قوله تعالى: ﴿أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ استفهام إنكاري، والتقدير هنا هو: أيوجدُ منكم أحد هذين الشيئين: أعني الإخراج من القرية، والعَوْد في الملة على كل حال حتى في حال كراهتنا لذلك؟[4].

وفي قوله تعالى: ﴿قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ استئناف إخباري فيه معنى التعجب، والتقدير كأنهم قالوا: ما أكذبنا على الله إن عدنا في الكفر بعد الإسلام؛ لأنّ المرتد أبلغ في الافتراء من الكافر، لأنّ الكافر مفترٍ على الله الكذب، حيث يزعم أنّ لله ندّاً ولا ندّ له، والمرتدّ مثله في ذلك وزائد عليه[5]،

(1) ينظر: زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي،(2/ 139)، وتفسير النسفي، النسفي، (1/ 586).

(2) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (2/ 139) وتفسير النسفي(1/ 586).

(3) ينظر: غريب القرآن، لابن قتيبة (ص 147)، و تفسير القرآن العظيم(3/ 448).

(4) ينظر: اللباب في علوم الكتاب، لابن عادل (9/ 214، 215)

(5) ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري (2/ 130).

ISSN : 2410-1818

وفي قوله تعالى: ﴿إِنْ عُدْنَا﴾ حذف، حيث إن هذا شرط، وجوابه محذوف، والتقدير هو: إن عدنا فقد افترينا، وقد حُذف لدلالة ما تقدم عليه[1].

ثالثاً: المعنى العام للآيتين الكريمتين:

معنى هاتين الآيتين هو أن زعماء القوم الذين كفروا وتكبروا عن الإيمان وعن اتباع ما أمرهم به نبيهم المرسل من ربه، وما نهاهم عنه قالوا على سبيل التوعد الشديد لنبي الله شعيب عليه السلام ومن معه من المؤمنين: قسمًا لنخرجنّك يا شعيب ومن آمن معك من بلادنا كلها مطرودين مهزومين، أو لترجعن إلى ملتنا وديننا الذي ورثناه عن آبائنا وأجدادنا وتكونون معنا على ما نحن عليه من اعتقاد، فقال لهم شعيب مستفهمًا ومستنكرًا ومتعجبًا من قولهم الذي قالوه: أتفعلون ذلك الأمر وتأمروننا بأن نعود في ملّتكم وأن نتبع دينكم، حتى ولو كنا كارهين ما تدعونا إليه من أحد الأمرين؟ والجواب على هؤلاء المتكبرين: إنكم تجهلون ما نحن عليه من ثبات العقيدة ومن الإيمان بربنا وخالقنا في القلب، فإن هذه العقيدة لا يمكن أن ينزعها أحد، أو يؤثر في ثباتها أيّ شيء، وتجهلون أن حب الوطن وتمسكنا به لا يزعزع العقيدة، ولا يجعلنا نُؤْثِر الإقامةَ في بلادنا على مرضاة الله بتوحيده وعبادته واتباع أوامره، ثم بين لهم رفضه التّام لهذا العرض الذي عرضوه عليه من العودة إلى عقيدة الكفر والإلحاد برب العالمين قائلا لهم: إنا إذا رجعنا إلى دينكم واتبعنا ملّتكم التي تقوم على الشّرك والكفر بالله، فنكون بهذا الفعل قد أجرمنا وأعظمنا الفرية على الله، وذلك بأن جعلنا له شركاء وأندادا، بعد أن نجانا الله من تلك الملّة الباطلة، وهدانا إلى ملّة التوحيد واتباع الصراط المستقيم، فكأنه قال لهم: اعلموا أنه لا ينبغي لأحد منا أن يفعل ما تطلبون من العود والصّيرورة في ملّتكم والتحوّل عما نحن فيه من الاستقامة إلا إذا شاء الله الذي يعلم كل شيء، وفي هذا تأكيد لرفض العود إلى هذه الملّة؛ لأنّ الله هو الذي يثبت عباده المخلصين على الإيمان والقول الثابت في الحياة الدنيا، وليس هو - الذي يعيدهم إلى الضلال؛ لأن الله متعال عن أن يشاء ردّة المؤمنين وعودهم إلى الكفر؛ لأنه سبحانه هو الذي أحاط علمه بكل شيء، فهو واسع العلم، يتصرّف بحكمة، ومشيئته تكون بحسب الحكمة، ولا يشاء إلا الخير للناس، وقد توكلنا عليه في أن يثبتنا على الإيمان، وأن يوفقنا لازدياد اليقين، وإنا لنطلب منه سبحانه أن يفصل بيننا وبينكم وبين كل كافر متكبّر متجبّر وأن ينصرنا على القوم الكافرين، وأن يخذل الشّرك والمشركين، فهو القادر المتصرّف في كل شيء بحكمة، وقدرة مطلقة، وهو نعم المولى ونعم النصير[2].

---

(1) ينظر: اللباب في علوم الكتاب (9/ 215).

(2) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن(12/ 561)، والجامع لأحكام القرآن(7/ 250)، وتفسير القرآن العظيم(3/ 448)، وزاد المسير في علم التفسير (2/ 139) والكشاف عن حقائق غوامض التنزيل(2/ 130) واللباب في علوم الكتاب(9/ 214، 215).

ISSN : 2410-1818

المطلب الثاني

آية سورة إبراهيم وبيان أهم ما يتعلق بها من أحكام

وقفة على أبرز ما اشتملت عليه الآية:

في هذا المطلب سنتكلم - كسابقه - عن هذه الآية الكريمة من خلال أهم الجوانب والنقاط التي تخدم السياق العام للحديث عن معنى العود الذي هو موضوع البحث، وذلك من خلال بيان كل ما من شأنه أن يخدم السياق العام للموضوع محل البحث، وهذه الجوانب من خلال النقاط الآتية:

أولًا: التعريف بالآية الكريمة:

هذه الآية الكريمة آية من آيات سورة إبراهيم، وقد ذكر المفسرون أن سورة إبراهيم مكية إلا آيتين منها: (28_ 29)، أي: أن هذه الآية الكريمة مكية [1].

وقد جاءت هذه الآية القرآنية الكريمة لأجل تسلية رسول الله ﷺ ؛ لأجل أن يتحمل كل ما يلاقيه من أذى هؤلاء المشركين، وأن يصبر على أذاهم كما صبر من قبله إخوانه من الرسل عليهم الصلاة والسلام، فإن هؤلاء الرسل حين دعوا أقوامهم إلى توحيد الله تعالى وترك عبادة الأصنام والأوثان قال لهم أقوامهم ردًّا على هذه الدعوة بعدما رفضوها وتكبّروا عليها: أنتم مخيّرون بين أحد أمرين، فإمّا أن نخرجكم من بلادنا مطرودين منها مهزومين، وإمّا أن تعودوا في ديننا الذي نحن عليه، أي: تصيرون من أتباع ملتنا التي ورثناها عن آبائنا وأجدادنا، فهذه الآية الكريمة تبين أنه لما حكى الله عن الأنبياء توكلهم على ربهم في دفع شرور أعدائهم حكى أيضًا عن الكفار والمشركين أنهم قد بالغوا في السفاهة وسوء الأدب والجهالة والطغيان، وذكر موقف الكفار العصبي الهمجي الذي بلغ في السفاهة منتهاه، وهو التهديد بأحد الأمرين المذكورَيْن، وقرر أن هذا هو الشأن في كل زمان من الأزمنة، حيث يعتمد فيه أهل الباطل وأهل الفسق وأهل الظلم على القوة والبطش، معتمدين في ذلك على قوتهم، وأخذوا يستغلون ضعف أهل الحق لقلتهم، ولكن قدرة الله فوق كل شيء، والله غالب على أمره ولو كره الكافرون ، فجعل العاقبة والنصر في النهاية للمتقين والهزيمة للكافرين المعتدين،

(1) ينظر: مفاتيح الغيب، للرازي (19/ 56) والكشاف عن حقائق غوامض التنزيل(2/ 537) والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز(3/ 321.)

ISSN : 2410-1818

وأعلمهم بالعذاب في الآخرة نتيجة هذا الطّغيان الذي يقومون به في الدنيا ، وتلك سنة الله في خلقه مع كل الأمم والرسل[1].

ثانيًا: بيان معاني بعض ألفاظها وأساليبها اللغوية:

نذكر في هذه الجزئية معاني أهم الكلمات الواردة في الآية الكريمة:

معنى قوله تعالى: ﴿لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ﴾ لنطردنّكم من ديارنا ووطننا ، معنى قوله تعالى: ﴿أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ﴾ أي: ليكونن أحد الأمرين إخراجكم أو عودكم، والعود بمعنى الصّيرورة، وهو كثير في كلام العرب أو خاطبوا به كل رسول ومن آمن معه فغلبوا في الخطاب الجماعة على الواحد[2]، ومعنى قوله تعالى: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ﴾ أي: كلمهم ربهم المحسن إليهم الذي توكلوا عليه في خفاء بسبب توعد أممهم لهم، مختصًا لهم بذلك، ومعنى قوله تعالى: ﴿لَنُهۡلِكَنَّ﴾ الإهلاك: إذهاب الشيء إلى حيث لا يقع عليه الإحساس[3]، ومعنى قوله تعالى: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: الكافرين المشركين[4].

ومن الأساليب اللغوية في الآية الكريمة مع أن هذه الآية الكريمة هي آية واحدة ولا تتجاوز سطرين إلا أنها اشتملت على الأساليب الآتية:

في قول الله تعالى: ﴿لَنُخۡرِجَنَّكُم﴾، وقول الله تعالى: ﴿لَتَعُودُنَّ﴾ يوجد بينهما طباق معنوي [5]، وفي قول الله تعالى: ﴿لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم﴾ تغليب يجوز معه أن يكون الخطاب لكل رسول ومن آمن معه فغلبوا الجماعة على الواحد ، وهذا كله تعزية للنبي ﷺ ليصبر على أذى المشركين كما صبر

---

(1) ينظر: مفاتيح الغيب، للرازي (19/ 56) وتفسير النسفي(2/ 166)، والكشاف عن حقائق غوامض التنزيل(2/ 545)، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، السمين الحلبي،(7/ 77)

(2) ينظر: تفسير النسفي،(2/ 166).

(3) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، (10/ 397.)

(4) ينظر: تفسير الجلالين، لجلال الدين المحلي، وجلال الدين السيوطي،(ص 331.)

(5) ينظر: البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان (5/ 112.)

والطباق: من المحسنات المعنوية (الطباق :ويسمى المطابقة –أيضاً – وهي – في اللغة –: الموافقة، والطباق في اصطلاح البلاغيين: هو مصدر مثل المطابقة كالقتال والمقاتلة، سمي بها لموافقة الضدين في الوقوع في جملة واحدة واستوائهما في ذلك، مع بعد الموافقة بينهما. كتاب من قضايا البلاغة والنقد عند عبد القادر الجرجاني (ص170)المكتبة الشاملة، والأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، إبراهيم الحنفي (368/2).

ISSN : 2410-1818

مَن قبله من الرّسل[1]، وفي قول الله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ حكاية تقتضي إضمار القول، أو إجراء الإيحاء مجرى القول، لأنه ضرب منه[2].

ثالثًا: المعنى العام للآية الكريمة:

حينما جاء الرّسل بالحجج الدّامغة والبراهين الظّاهرة وحصل عند الكافرين والمشركين من الأمم إفلاس في مناقشة الأنبياء ومن معهم من المؤمنين، وضَعُفَت الحجج أمام حجّة الرّسل وبيانهم، لم يجدوا سبيلا إلا أن يحاولوا أن يضعوا الرّسل في أزمة أو ضيق وأن يتعاملوا معهم بأسلوب عدواني، فتوعدوا رسلهم بأحد أمرين:

إمّا الطرد من البلاد وإخراجهم ونفيهم منها، وإمّا أن يعودوا إلى ملّتهم، وأن يصيروا معهم في دينهم وشرعهم الموروث عن الآباء والأجداد، وإنّ السّبب في هذا التهديد والوعيد الذي قاموا به هو: اغترار هؤلاء الكفّار بقوتهم وبكثرتهم، وقلّة عدد المؤمنين وضعف عددهم، والتمادي والطمع في حسن خلق المؤمنين، وعندما اعتدى هؤلاء الكفّار بهذا التهديد العدواني أبلغ الله تعالى عباده المؤمنين من خلال الوحي إلى أنبيائه المرسلين أنه سيقف بجانبهم بقوته وقدرته التي لا يعجزها شيء في الأرض ولا في السماء أنه سينتقم من هؤلاء الكافرين، وأنه سيهلكهم، وسيقضي عليهم، وعلى كفرهم، وأنه تعالى سينصر رسله والذين آمنوا معهم؛ لأن حكمة الله قد قضت بالنصر والغلبة للمؤمنين والذل والهوان والخسران والضلال للكافرين المشركين[3].

(1) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، (3/ 195.)

(2) ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل،(2/ 545.)

(3) ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، (2/ 545)، و معالم التنزيل في تفسير القرآن، البغوي، (4/ 339) و تفسير الجلالين، (ص 331.)

ISSN : 2410-1818

المبحث الثاني:

تحرير معنى العود في الآيات الكريمة، ودفع ما يُتَوَهَم منه، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: البيان اللغوي لمعنى لفظ: "العود".

المطلب الثاني: تقرير الإشكال، وبيانه من خلال ما ذكره المفسرون.

المطلب الثالث: دفع الإيهام وإزالة هذا الإشكال.

المطلب الأول

البيان اللغوي لمعنى لفظ: "العَوْد"

لمَّا لم يكن هناك سبيل لفهم القرآن الكريم وإدراك معانيه إدراكًا صحيحًا إلا من خلال اللغة العربية كان لزاماً علينا أن نحقق القول في المعنى اللغوي للفظ العود الوارد في هذه الآيات الكريمة، وبعد مطالعة المصادر الأصيلة للغة العربية يتضح أن لفظ العود في اللغة يدور حول عدة معاني، ومجمل هذه المعاني – مما يتعلق بالمسألة محل الدراسة- ثلاثة، وهي التي يدور حولها المعنى الوارد في القرآن الكريم فيما يتعلق بقضية تحقيق القول في معنى العود المذكور في الآيات الكريمة، وهي:

1 – الرجوع إلى ما كان عليه [1]: قال ابن فارس: "العين والواو والدال أصلان صحيحان، يدل أحدهما على تثنية في الأمر"[2]، ولذلك يقال: عاد إليه يعود عودة وعودًا، ومعادًا: رجع [3]. وفي المثل: العود أحمد [4]، وقد عاد له بعد ما كان أعرض عنه؛ وعاد إليه وعليه عودا وعيادا وأعاده هو، والله يبدئ الخلق ثم يعيده، كل ذلك من معنى الرجوع [5]، ومنه العادة، وسميت بذلك؛ لأن صاحبها يعاودها أي: يرجع إليها مرة بعد أخرى[6]، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا

(1) تاج العروس، الزَّبيدي، (8/ 432) وأساس البلاغة، الزمخشري (1/ 683.).

(2) مقاييس اللغة، لابن فارس (4/ 181.).

(3) لسان العرب، لابن منظور (3/ 317.).

(4) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، الجوهري (2/ 513).

(5) الصحاح، للجوهري،(2/ 513) ولسان العرب، لابن منظور (3/ 315)

(6) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الحموي،(2/ 436).

ISSN : 2410-1818

قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا ﴾ [المجادلة: 3]، قال ابن منظور: "قال الفراء: يصلح فيها في العربية ثم يعودون إلى ما قالوا وفيما قالوا، يريد النكاح وكلٌ صواب؛ يريد يرجعون عما قالوا"(1).

2 – الصّيْرُورة: ومن اللفظ يقال: عاد إلى كذا وعاد له أيضًا يعود عودة وعودا صار إليه وجاء في التنزيل قول الله تعالى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ [الأنعام: 28](2).

قال ابن منظور: "وقد جاء عنهم هذا مجيئًا واسعا؛ أنشد أبو علي العجاج:

وقصبا حني حتى كادا ... يعود، بعد أعظم، أعوادا

أي: يصير"(3).

3 – الابتداء والدخول: قال المرتضى الزبيدي: " قال شيخنا: وحقق الراغب، والزمخشري، وغير واحد من أهل تحقيقات الألفاظ، أنه يطلق العود، ويراد به الابتداء، في نحو قوله: ﴿أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ﴾ [سورة: الأعراف، آية: 88] أي: لتدخلن وقوله: ﴿إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم﴾ [سورة: الأعراف، آية: 89] أي: دخلنا، وأشار إليه الجار بردي، وغيره، وأنشدوا قول الشاعر:

وعاد الرأس مني كالثغام"(4)، والمعنى وصار الرأس مني كاللثام.

فيظهر من هذا أن لفظ العود في اللغة العربية إما أن يراد به الرجوع، وإما أن يراد به الصيرورة، وإما أن يراد به الابتداء والدخول.

(1) لسان العرب، لابن منظور (3/ 316.).

(2) المصباح المنير، للفيومي (2/ 436). وتاج العروس، للزبيدي (8/ 432.).

(3) لسان العرب، لابن منظور (3/ 322)

(4) تاج العروس، للزبيدي (8/ 432)

ISSN : 2410-1818

المطلب الثاني

تقرير الإشكال، وبيانه من خلال ما ذكره المفسرون

أولا: تقرير الإشكال:

هذا الإشكال مُحتمَلٌ وواردُ من جهتين:

الجهة الأولى: أن ظاهر "العودة" يقتضي أنهم كانوا على الشرك، وهذا ظاهر من كلام الكفّار من قوم شعيب عليه الصلاة والسلام له ولمن معه من المؤمنين: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ في آية سورة الأعراف، ومن كلام هؤلاء المشركين لرسلهم في آية سورة إبراهيم، وهذه الجهة من الإشكال واردة على الموضعين معًا، أي: على موضع سورة الأعراف، وموضع سورة إبراهيم ، وقد سبقت دراستهما في المبحث الأول.

الجهة الثانية: من جهة قول شعيب عليه السلام: ﴿إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ﴾ فظاهره أن شعيب وقومه كانوا على الشّرك قبل ذلك، وقوله: ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ يُعد تصريحاً بأنهم كانوا على دين قومهم، وهذه الجهة من الإشكال واردة على موضع سورة الأعراف خاصة.

ثانيا: بيان بعض من تعرض لتقرير هذا الإشكال من المفسرين:

بالنسبة لهاتين الجهتين استخرجناهما مما ذكره المفسرون، فقد تعرض لبيان وتقرير هذا الإشكال ولرده طائفة من المفسرين، وبعضهم اكتفى بالردّ اعتماداً على ظهور الإشكال، أو شهرته، ومن هؤلاء المفسرين على سبيل الإجمال:

1 – البغوي: تعرّض البغوي - رحمه الله - للجهة الأولى من الإشكال صراحةً، لكن يُؤخذ من جوابه الردّ على الجهة الثانية أيضًا [1].

2 – الزمخشري: تعرض الزمخشري - رحمه الله - لهذا الإشكال من الجهة الأولى فقط، وليس هذا منه إهمالاً للجهة الأخرى، بل لأمر آخر، وهو أنه يرى اتحاد الجهتين، كما سيظهر من جوابه؛ حيث إن جوابه ينتظم جهتي الإشكال، قال في آية سورة الأعراف: "إن قلت: كيف خاطبوا شعيبًا عليه السلام بالعود في الكفر في قولهم: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ وكيف أجابهم بقوله: ﴿إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ

(1) معالم التنزيل في تفسير القرآن، للبغوي (2/ 215.)

ISSN : 2410-1818

﴿نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، والأنبياء عليهم السلام لا يجوز عليهم من الصغائر إلا ما ليس فيه تنفير، فضلا عن الكبائر، فضلا عن الكفر؟"[1]، وقريب من هذا التقرير في سورة إبراهيم[2].

3 – الفخر الرازي: حيث تناول الفخر الرازي - رحمه الله - هذا الإشكال وتولى الجواب عنه بالتفصيل؛ فقد تناول الإشكال في الآيتين، فقال في آية سورة الأعراف: "اعلم أن شعيبًا لما قرر تلك الكلمات قال: الذين استكبروا وأنفوا من تصديقه وقبول قوله لا بد من أحد أمرين: إما أن نخرجك ونخرج أتباعك من هذه القرية وإما أن تعود إلى ملتنا ، والإشكال فيه أن يقال: إن قولهم: ﴿أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ﴾ يدل على أنه عليه السلام كان على ملتهم التي هي الكفر فهذا يقتضي أنه عليه السلام كان كافرا قبل ذلك، وذلك في غاية الفساد وقوله: ﴿قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم﴾ يدل أيضًا على هذا المعنى"[3].

ويلاحظ تعرض الرازي - رحمه الله - للجهة الأولى من الإشكال دون الجهة الثانية، لكنه في رد هذا الإشكال يستعرض الجهتين معًا.

وقال في آية سورة إبراهيم: "اعلم أنه تعالى لما حكى عن الأنبياء عليهم السلام، أنهم اكتفوا في دفع شرور أعدائهم بالتوكل عليه والاعتماد على حفظه وحياطته، حكى عن الكفار أنهم بالغوا في السفاهة وقالوا: ﴿لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ﴾ والمعنى: ليكونن أحد الأمرين لا محالة إما إخراجكم وإما عودكم إلى ملتنا. والسبب فيه أن أهل الحق في كل زمان يكونون قليلين وأهل الباطل يكونون كثيرين والظلمة والفسقة يكونون متعاونين متعاضدين، فلهذه الأسباب قدروا على هذه السفاهة، فإن قيل: هذا يوهم أنهم كانوا على ملتهم في أول الأمر حتى يعودوا فيها. قلنا: الجواب من وجوه...إلخ"[4]، وسوف يأتي - إن شاء الله - بيان هذه الأوجه عند إيراد الردود على هذه الإشكالات في المطلب الآتي.

---

(1) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، (/ 129.)

(2) المرجع السابق،(2/ 544.)

(3) مفاتيح الغيب، للرازي (14/ 316.)

(4) المرجع السابق (19/ 76.)

ISSN : 2410-1818

4 – الحافظ ابن كثير: تناول هذا الإشكال، وتعرض بالتلميح للجهة الثانية من الإشكال [1].

5 – جلال الدين السيوطي: وقد تناول الجهة الأولى من الإشكال، وقد يؤخذ على سبيل الإشارة كلامه للجهة الثانية من الإشكال، ورده [2].

وبعد هذا الذي ذكرنا يبدو لنا جليًا أن الإشكال وارد وثابت، مع العلم أننا لم نستقصِ كل ماورد عن المفسرين؛ لأن فيما أوردنا ما يجلي الأمر ويوضحه ولئلا يطول البحث.

ومن هنا رأينًا أن نقوم بدفعه من خلال ما قرره علماء التفسير الذين وضحوه وبينوه أبلغ بيان، وهذا محل الكلام عنه في المطلب الآتي.

المطلب الثالث

دفع الإيهام وإزالة هذا الإشكال

تعددت الأجوبة عن هذا الإشكال بجهتيه المذكورتين في المطلب السابق، فمن المجيبين من يجيب بجواب واحد عن جهتي الإشكال، ومنهم من يجيب عن كل جهة، وقد رأيت إفراد كل جهة بالجواب:

أولًا: جواب الجهة الأولى من الإشكال:

تعددت أجوبة علماء الإسلام من المفسرين عن الجهة الأولى من الإشكال، وأيا ما كان الأمر فإنّ مرجع هذه الأجوبة محصور في أمرين اثنين:

الأمر الأول: منع كون (العود) هنا بمعنى الرجوع إلى ما كان من قبل، ومن ثم تحمل العود على معنى آخر غير هذا المعنى، وهذا المعنى:

1 - إما أن يكون "الصيرورة"، فيكون قوله: {عاد}؛ أي: صار، وقد سار على هذه الطريقة جمع من المفسرين، ووجهوه توجيهًا لائقًا، وهذا هو ما ذكره الواحدي في أحد جوابيه في هذا الموضع [3]،

(1) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (3/ 448)

(2) تفسير الجلالين، للجلال المحلي، والجلال السيوطي (ص 206).

(3) التفسير البسيط، الواحدي، (9/ 231).

ISSN : 2410-1818

والزمخشري في سورة إبراهيم، قال: "العود بمعنى الصيرورة، وهو كثير في كلام العرب كثرة فاشية لا تكاد تسمعهم يستعملون صار، ولكن عاد، ما عدت أراه عاد لا يكلمني، ما عاد لفلان مال"(1). وكذلك ابن عطية، غير أنه قيد هذا المعنى بما إذا أريد به النبي ﷺ؛ أي: لأن عاد بمعنى رجع –وكان المراد الرجوع إلى الشرك- مستحيل في حق الأنبياء؛ فلا بد من حمله على معنى آخر يليق بهم، وهو أن عاد بمعنى صار، وهو كما ذكرنا آنفًا مما تحتمله اللغة (2).

وكذلك الرازي في موضع الأعراف؛ فقد ذكر أوجهًا منها هذا الجواب، ومن ذلك أنه قال: "المراد من قوله: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾؛ أي: لتصيرن إلى ملتنا فوقع العود بمعنى الابتداء. تقول العرب: قد عاد إلي من فلان مكروه يريدون قد صار إليَّ منه المكروه ابتداء قال الشاعر:

فإن تكن الأيام أحسن مرّة ... إليَّ فقد عادت لهن ذنوب

أراد فقد صارت لهن ذنوب ولم يرد أن ذنوبا كانت لهن قبل الإحسان"(3).

وهو معتمد في هذا الجواب على رأي الزمخشري، حيث صرح به في موضع إبراهيم (4).

وقد أجاب به البيضاوي في موضع إبراهيم (5)، وكذلك أجاب به الجلال السيوطي في موضع إبراهيم (6).

2 - وإما أن يكون معنى العود هو الابتداء؛ فيكون معنى ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾؛ أي: الابتداء في دخول هذه الملة الكفرية؛ أي: كونوا كافرين أو لنخرجنكم، وقد ذكر هذا المعنى الزجاج فيما نقله عنه القرطبي حيث قال: "قال الزجاج: يجوز أن يكون العود بمعنى الابتداء؛ يقال: عاد إلي من فلان

(1) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، للزمخشري (2/ 544، 545).

(2) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (2/ 428)

(3) مفاتيح الغيب، للرازي، (4/ 316.)

(4) المرجع السابق (19/ 77.)

(5) أنوار التنزيل وأسرار التأويل (3/ 195)

(6) تفسير الجلالين، (ص 331.)

ISSN : 2410-1818

مكروه، أي صار، وإن لم يكن سبقه مكروه قبل ذلك؛ أي: لحقني ذلك منه"[1]، وهو أحد أجوبة البغوي في هذا الموضع [2].

الأمر الثاني: تسليم كون المراد (بالعود) الرجوع إلى ما كان من قبل، والمسلم بهذا لا بد له من تأويل ينفي به ما يتوهم من نسبة الكفر إلى الأنبياء عليهم السلام، وقد تعددت الأجوبة التي وقعت على وفق هذه الطريقة، والذي وقفت عليه منها ما يلي:

الجواب الأول: أن هذا الكلام جار على سبيل التغليب؛ أي: أن شعيبا - عليه السلام-، وكذا الأنبياء -عليهم السلام- دخلوا في حكم قومهم على سبيل التغليب؛ أي: أخذوا حكمهم من أنهم كانوا على ما كان عليه قومهم، ولم يريدوا أن شعيبا - عليه السلام- ، ولا الأنبياء - عليهم السلام- كانوا على دين قومهم، وعلى هذا التغليب جاء جواب شعيب - عليه السلام - في موضع الأعراف[3]، وكذا في موضع إبراهيم[4]، وممن أجاب بهذا الجواب الطبري [5]، ولم يذكر غيره، وكذا الواحدي في أحد جوابيه في هذا الموضع[6]، وقد أجاب به الزمخشري أيضا، قال: "لما قالوا ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ﴾، فعطفوا على ضميره الذين دخلوا في الإيمان منهم بعد كفرهم قالوا: ﴿لَتَعُودُنَّ﴾، فغلبوا الجماعة على الواحد، فجعلوهم عائدين جميعا، إجراء للكلام على حكم التغليب. وعلى ذلك أجرى شعيب - عليه السلام- جوابه فقال: ﴿إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾، وهو يريد عود قومه، إلا أنه نظم نفسه في جملتهم وإن كان بريئا من ذلك إجراء لكلامه على حكم التغليب" [7]، وقد أجاب بهذا الجواب في موضع الأعراف، وكذا في موضع إبراهيم [8].

---

(1) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (7/ 250.)

(2) معالم التنزيل في تفسير القرآن، للبغوي (2/ 215)

(3) جامع البيان، للطبري (12/ 561.)

(4) المرجع السابق (16/ 539.)

(5) المرجع السابق (16/ 539.)

(6) التفسير البسيط، (9/ 231)

(7) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، للزمخشري (2/ 129، 130)

(8) المرجع السابق (2/ 545)

ISSN : 2410-1818

والرازي قال: "أن أتباع شعيب كانوا قبل دخولهم في دينه كفارا فخاطبوا شعيبا بخطاب أتباعه وأجروا عليه أحكامهم"[1]، ومراده بهذا التغليب، ويكون جواب شعيب - عليه السلام - على وفق التغليب، وقد أجاب بهذا الجواب في موضع الأعراف، وموضع إبراهيم [2].

وكذا أجاب البيضاوي في موضع الأعراف، قال: "وشعيب - عليه الصلاة والسلام - لم يكن في ملتهم قط؛ لأن الأنبياء لا يجوز عليهم الكفر مطلقا، لكن غلبوا الجماعة على الواحد فخوطب هو وقومه بخطابهم، وعلى ذلك أجرى الجواب في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَرِهِينَ﴾ أي كيف نعود فيها ونحن كارهون لها، أو أتعيدوننا في حال كراهتنا"[3]، وهو أحد جوابين أجاب بهما في إبراهيم [4].

وقد أجاب به جلال الدين السيوطي في موضع الأعراف [5].

الجواب الثاني: أن هذا من المشركين على سبيل التوهم؛ أي: أنهم توهموا أن الأنبياء عليهم السلام - كانوا على الشرك، ولا يلزم أن يكون صحيحا، وقد أجاب بهذا الوجه الرازي في موضع سورة الأعراف [6]، وموضع سورة إبراهيم [7].

الوجه الثالث: أن هذا خطاب لأتباع شعيب وحده؛ حيث كانوا قبل ذلك على الكفر وعلى الملة التي عليها قوم شعيب، وليس المراد بهذا الخطاب هو شعيب - عليه السلام-، وهذا الجواب صريح كلام الحافظ ابن كثير [8]، ويمكن أخذه من جواب القرطبي، فجاء عنه كلام محتمل له، وعبارته:

---

(1) مفاتيح الغيب، للرازي (14/ 316)

(2) المرجع السابق (19/ 77.)

(3) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي (3/ 24)

(4) المرجع السابق (3/ 195)

(5) تفسير الجلالين، (ص 331)

(6) مفاتيح الغيب، للرازي (14/ 316)

(7) المرجع السابق (19/ 77)

(8) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (3/ 448)

ISSN : 2410-1818

"قيل: كان أتباع شعيب قبل الإيمان به على الكفر؛ أي: لتعودن إلينا كما كنتم من قبل" [1]، ويحتمله كلام ابن عطية أيضا [2].

الوجه الرابع: أن هؤلاء الكفار المشركين قالوا هذا التهديد والوعيد الذي أرادوا به تخويف المؤمنين، وكان لهم مقصد آخر، ألا وهو التلبيس على العوام؛ حتى يوهموهم أن نبي الله شعيبا - عليه السلام - كان قبل أن يقول ما قال على دينهم، فيكون ذلك أدعى لأن يطمئن أهل الكفر على ما هم عليه من عدم الإيمان بما جاء به شعيب، وقد ذكر جوابه على وفق ذلك الإيهام، وأجاب عنه فخر الدين الرازي في موضع الأعراف [3].

الوجه الخامس: أن يقال: إن شعيبا كان على شريعتهم ثم إنه سبحانه وتعالى نسخ تلك الشريعة بالوحي الذي أوحاه إليه [4]، وقد أجاب بهذا الجواب الرازي في موضع الأعراف [5]، وموضع إبراهيم، وعبارته فيه: "لعل أولئك الأنبياء كانوا قبل إرسالهم على ملة من الملل، ثم إنه سبحانه وتعالى أوحى إليهم بنسخ تلك الملة وأمرهم بشريعة أخرى وبقي الأقوام على تلك الشريعة التي صارت منسوخة مصرّين على سبيل الكفر، وعلى هذا التقدير فلا يبعد أن يطلبوا من الأنبياء أن يعودوا إلى تلك الملة"[6].

الوجه السادس: أن المراد بالعودة هو الرجوع، لكن ليس إلى ما كان عليه قومهم من الشرك، بل الرجوع إلى أمر آخر، وهو الرجوع إلى السكوت عن عيب دينهم، وقد أجاب به الرازي في موضع

---

(1) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (7/ 250)

(2) المحرر الوجيز، لابن عطية (2/ 428)

قلت: وهو صالح للجواب عن موضع إبراهيم أيضًا.

(3) مفاتيح الغيب، للرازي (14/ 316)

قلت: وهو صالح للجواب عن موضع سورة إبراهيم -أيضًا - وإن لم يصرّح به.

(4) قلت: لا يفهم من هذا الكلام أن شعيبا - عليه السلام - كان على الكفر، بل المراد من هذا الوجه: يحتمل أنه وقومه كانوا على ملة ما من الملل الحنيفية ، ثم إن الله سبحانه وتعالى نسخها إلى شريعة أخرى فأبى قومه ترك ما كانوا عليه، فيكون كفرهم لأجل عنادهم، كما هو الحال في حق النصارى واليهود الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ؛ فإنهم كانوا أهل كتاب، وقد نسخت شرائعهم بشريعة النبي محمد ﷺ ، والحكم بكفرهم لأجل عنادهم بالبقاء على ما كانوا عليه. والله أعلم.

(5) مفاتيح الغيب، للرازي (14/ 316)

(6) المرجع السابق (19/ 77)

ISSN : 2410-1818

إبراهيم خاصة، قال: "لا يبعد أن يكون المعنى: أو لتعودن في ملتنا، أي إلى ما كنتم عليه قبل ادعاء الرسالة من السكوت عن ذكر معايبة ديننا وعدم التعرض له بالطعن والقدح" [1].

ثانيا: جواب الجهة الثانية من الإشكال:

الكلام فيما يتعلق بالجهة الثانية من الإشكال على غرار ما سبق في الجهة الأولى؛ إذ يجب أن يكون على وفق الجواب عن العودة، وحينئذ يقال:

لا تخرج الأجوبة عن هذه الجهة عن طريقتين:

الطريقة الأولى: طريقة من فسر العودة بالصيرورة:

وعلى هذه الطريقة سار الواحدي [2]، وكذلك الطبري، قال: ﴿قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ يقول: قد اختلقنا على الله كذبًا، وتخرّصنا عليه من القول باطلا إن نحن عدنا في ملتكم، فرجعنا فيها بعد إذ أنقذنا الله منها، بأن بصَّرنا خطأها وصوابَ الهدى الذي نحن عليه"[3].

ومن هؤلاء فخر الدين الرازي في إحدى أجوبته، فقد قال: "معنى إذ نجانا الله منها علمنا قبحه وفساده ونصب الأدلة على أنه باطل"[4].

---

(1) المرجع السابق (19/ 77)

قلت: ولعل هذا الجواب لا يصلح في موضع الأعراف من أجل جواب شعيب – عليه السلام – بقوله: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ ...إلخ؛ إذ ظاهر السياق أن المراد بالعود: العود إلى الشرك. والله أعلم.

(2) التفسير البسيط، للواحدي (9/ 233).

(3) جامع البيان، للطبري (12/ 562)

قلت: قول الطبري: "بأن بصرنا... إلخ} تفسير للمراد بالعودة في كلام نبي الله شعيب – عليه السلام – وقد مرّ أن الطبري لم يسر على هذه الطريقة، بل فسّر العودة بالرجوع، وحمل الكلام على التغليب، فكيف يقال: إنه سلك هذا الطريق في الجواب هنا؟

والجواب: أنه لا إشكال، فيحمل ما هنا على أنه جواب آخر، فيكون قد أجاب بجوابين: أحدهما: جار على أن المراد بالعودة الرجوع إلى ما كان، والثانية: أن المراد بالعودة الصيرورة. والله أعلم.

(4) مفاتيح الغيب، للرازي (14/ 316).

ISSN : 2410-1818

الطريقة الثانية: طريقة من أقرّ بكون العودة هنا هي الرجوع:

والذي وقفت عليه من الأجوبة التي جاءت عن المفسرين على هذه الطريقة هي الأجوبة الآتية:

الجواب الأول: أن المراد من جواب نبي الله شعيب - عليه السلام - أن الله سبحانه وتعالى قوَّمه من الشرك، فلم يرد نفسه في الواقع، إلا أن شعيب - عليه السلام - أدخل نفسه في الجواب على سبيل التغليب، وهذا الأسلوب معلوم، ومتبع في كلام العرب، وغيرهم، وعلى هذه الطريقة في العرض سار فخر الدين الرازي في إحدى أجوبته، والتي قال فيها: "المراد أن الله تعالى قد نجى قوم شعيب من تلك الملة الكافرة إلا أن شعيبًا قد نظم نفسه في جملتهم، وإن كان شعيب بريئا منه إجراء الكلام على حكم التغليب" [(1)].

الجواب الثاني: أن هذا الجواب جار على حسب ما اعتقده هؤلاء المشركون، قاله الرازي، وعبارته: "أن القوم أوهموا أنه كان على ملتهم أو اعتقدوا أنه كان كذلك. فقوله: بعد إذ نجانا الله منها أي حسب معتقدكم وزعمكم"[(2)].

الجواب: الثالث: أن هذا الجواب من شعيب - عليه السلام - تعبير منه عن أتباعه، وقد أجاب بهذا الجواب الحافظ ابن كثير [(3)].

ومما سبق يمكننا أن نستخلص:

أن قوله تعالى: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ إما أن يكون المراد بالعودة الصيرورة أو الدخول ابتداءً وهنا لا إشكال أصلًا، وإما أن يكون المراد بالعودة الرجوع وعلى هذا يكون المراد من هذا الخطاب قوم شعيب- عليه السلام- ، وأقوام الأنبياء - عليهم السلام- ، ودخول شعيب والأنبياء في هذا الخطاب جاء على سبيل التغليب، وإما أن يكون المراد هو التلبيس، أو أن يكون قد صدر هذا القول من قومهم على سبيل التوهم، أو أن يكون المراد هو الرجوع إلى ما كانوا عليه من ترك الإنكار، وقوله تعالى:

---

(1) مفاتيح الغيب، للرازي (14/ 316)

(2) المرجع السابق (14/ 316)

(3) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (3/ 448).

ISSN : 2410-1818

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾ على غراره من غير فرق في الجواب، وقوله تعالى: ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ يفهم في ضوء ما تقدم، فيكون المراد إما أنه تعالى بَصَرَّهُم بخطأ الشرك، لا بمعنى أنهم كانوا فيه ونجاهم منه، أو يكون المراد نجى قومي، أو أن هذا الجواب من شعيب - عليه السلام - نيابة عن قومه، وبهذا كله يندفع الإشكال ويرتفع الإيهام الذي يتبادر إلى الأذهان عند قراءة هذه الآيات، والله تعالى أعلم .

الخاتمة

الحمد لله في مبتدأ كل شيء ومنتهاه، هو الذي يوفق عباده إلى ما يحبه ويرضاه، وصلواته وتسليماته على جميع أنبيائه ورسله، وعلى آلهم وأصحابهم ومن سلك دربهم إلى يوم الدين، أما بعد..

وبعد تمام هذا البحث توصلت إلى مجموعة من النتائج، والتوصيات، وإليكم بيانها في النقاط التالية:

أولًا: النتائج:

وبعد هذه الدراسة توصلت إلى النتائج التالية:

1- أن المفسرين الأوائل بذلوا مجهودًا كافيًا في تحرير المسائل، والتدقيق على النحو الذي تظهر فيه قضايا القرآن الكريم واضحة المعالم.

2- أن الأنبياء عليهم السلام نالهم من أقوامهم كل أنواع الأذى في سبيل صدّهم عن المضي في دعوتهم إلى الله، فما كان منهم إلا الثبات على ما هم عليه من الحق.

3- أن القرآن الكريم لا يوجد سبيل إلى فهم معانيه وإدراك قضاياه إلا من خلال فهم اللغة العربية ومعرفة أسرارها، والأوجه التي تحتملها.

4- أن بحث قضايا القرآن الكريم منفردةً، أي: كل قضية بمفردها يجعلها أكثر وضوحًا، ويجعلها في حالة من البيان يندفع معها كل إشكال.

5- أنه ينبغي علينا دراسة القضايا القرآنية على سبيل التفصيل؛ لنستخرج ما فيه من مغاليق الأفهام، على شكل من التفصيل والبيان.

ISSN : 2410-1818

ثانيًا: التوصيات:

1- ينبغي على المتخصصين من الباحثين الأكاديميين وغيرهم أن يعتنوا عناية كاملة بدراسة قضايا القرآن الكريم واستخراج الدروس التي يعود نفعها على الفرد والمجتمع؛ لأنه لا صلاح لمجتمع من المجتمعات إلا بفهم كتاب الله فهماً صحيحاً.

2- يجب تناول كل القضايا التي من شأنها أن تُحْدِث إشكالًا في الأذهان على نحو يزيل ما في الأذهان من أوهام متجهة نحو نصوص وقضايا القرآن الكريم.

3- علينا أن نهتم في مجتمعاتنا باللغة العربية ودراسة معانيها والعمل على فهم أصولها وفروعها، لنتمكن من فهم القرآن الكريم فهمًا صحيحًا لا إشكال فيه.

وفي ختام هذا البحث أسأل الله ـ القبول والتوفيق، وأن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به الإسلام والمسلمين، وأن يستخدمنا في خدمة دينه وكتاب العزيز إنه ولي ذلك والقادر عليه، هو نعم المولى ونعم النصير.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ISSN : 2410-1818

المصادر والمراجع

1 - أساس البلاغة، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط. دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، سنة: 1419 هـ - 1998 م.

2 - أنوار التنزيل وأسرار التأويل، لناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى - 1418 هـ.

3 - البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، ط. دار الفكر - بيروت، الطبعة: الأولى، سنة: 1420 هـ.

4- تاج العروس، لمحمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبي الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، ط. دار الهداية، د. ت، د. ط.

5 - التفسير البسيط، الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي، تحقيق: أصل تحقيقه في (15) رسالة دكتوراة بجامعة الإمام محمد بن سعود، ثم قامت لجنة علمية من الجامعة بسبكه وتنسيقه، ط. عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى، سنة: 1430 هـ.

6 - تفسير الجلالين، لجلال الدين محمد بن أحمد المحلي، وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، ط. دار الحديث - القاهرة، الطبعة: الأولى، د. ت.

7 - تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط. دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، سنة: 1420هـ - 1999 م.

8 - تفسير النسفي، لعبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي، تحقيق: يوسف علي بديوي، ط. دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة: الأولى، سنة: 1419 هـ - 1998 م.

9 - جامع البيان في تأويل القرآن، لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبي جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط. مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، سنة: 1420 هـ - 2000 م.

10 - الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط. دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة: الثانية، سنة: 1384هـ - 1964 م.

11 - الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، المؤلف: أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي، تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط، ط. دار القلم، دمشق، د. ت.

ISSN : 2410-1818

12 - زاد المسير في علم التفسير، لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط. دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الأولى، سنة: - 1422 هـ.

13 - الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط. دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة: الرابعة، سنة: 1407 هـ - 1987 م.

14 - غريب القرآن، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق: سعيد اللحام، د. ط، د. ت.

15 - الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة، سنة: 1407 هـ.

16 - اللباب في علوم الكتاب، لأبي حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، ط. دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، سنة: 1419 هـ -1998م.

17 - لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، ط. دار صادر - بيروت، الطبعة: الثالثة، سنة: 1414 هـ.

18 - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط. دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، سنة: - 1422 هـ.

19 - المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، لأحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبي العباس، ط. المكتبة العلمية - بيروت، د. ط، د. ت.

20 - معالم التنزيل في تفسير القرآن، لمحيي السنة، أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش، ط. دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، سنة: 1417 هـ - 1997 م.

21 - مفاتيح الغيب، لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة، سنة: 1420 هـ.

22 - مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبي الحسين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط. دار الفكر، سنة: 1399هـ - 1979م.

ISSN : 2410-1818

23 - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لإبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي، ط. دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د. ت، د. ط. الوسيط في تفسير القرآن المجيد، لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الدكتور أحمد محمد صيرة، الدكتور أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور عبد الرحمن عويس، ط. دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، سنة: 1415 هـ - 1994م.